تجارب الحياة تُعبئ فراغات الوعي

من منا لم يتساءل يوماً لماذا تجرِّبنا الحياة؟

من منا لم يشتك يوماً من قسوة الحياة عليهَ، ويتفكر في سبب هذه القسوة؟

من منا لم يخطر في باله، ولو للحظة عابرة، فكرة عشوائية النظام وعبثية الحياة وفوضى الأحداث؟

من منا لم يُعز كل ذلك إلى تقاطع الظروف وأمر القضاء وحكم القدر؟

من منا لم يعتبر أن الحظ يحالف البعض ويعادي البعض الآخر؟

أسئلة كثيرة اعتاد السواد الاعظم من الناس على كبتها او حتى عدم التفكير فيها.

فمن منا ارتوى فكره من الاجابات المتوافرة ولم يستسلم لليأس من إيجاد الاجابات الشافية، أو يسلّم بعجزه عن إدراك هذه الامور الوجودية؟

علوم الايزوتيريك، علوم باطن الانسان، علوم النواحي الخفية من كل علم، تجيب عن هذه التساؤلات وغيرها لتكشف النقاب عن حقائق قديمة-جديدة، حقائق طمسها الانسان بابتعاده عن حقيقة نفسه، لأن حقيقة الكون من حقيقة الانسان، ومعرفة الخالق من معرفة خلقه - كما يوضح علم الوعي.

ألم تُحفر على معبد دلفي في اليونان عبارة سقراط البسيطة العظيمة، «إعرف نفسك، تعرف كل شيء...»؟ والتي باتت المدخل العريض للفلسفة الخالدة.

ألم يقل سقراط «الأرض مدرسة الانسان»؟

ألم يقل الإمام علي «أوتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر»؟

ألم يقل السيد المسيح «ملكوت الله هو في داخلكم»؟

تجارب الحياة دروس في مدرسة الأرض، يرتادها الانسان يوماً بعد يوم على مدى عمره، ويطوي فيها فصول ودورات من التعلم والتفتح على معرفة أودعت في أعماق باطن وعيه.

صورة سالبة هي معرفة الانسان وعليه تظهيرها.

خطوط عريضة للوحة فنية عليه تعبئة تفاصيلها.

خيالات وظلال عليه اقتفاء أثر مصدرها.

تجارب الحياة بتدرجاتها كافة تخطّ على صفحات وعي الانسان فصول من الاختبار، وتعبئ بتنوعها، فراغات الوعي التطبيقي لديه، فتظهر أمامه شيئاً فشيئاً معالم المعرفة، وترتسم أمامه التفاصيل الدقيقة للمخطط الشامل في مسيرة حياته... ما يحوّل الخيالات والظلال إلى شخصيات واحداث على مسرح الحياة.

معلوم أن للحياة نظام يسيّر مخلوقاتها وموجوداتها وعلى رأس هذا الهرم، الانسان سيد هذه المخلوقات جمعاء. فالأرض بأكملها وجدت من أجل تطور الانسان عليها. في خطوطه العريضة، يعمد نظام الحياة إلى تفعيل الوعي لدى الانسان في صلب عالم الازدواجية، عالم المادة والأرض، وذلك عن طريق التعلم بالمقارنة والاختبار. فإذا ما شبهنا وعي الانسان بلوحة فسيفساء متنوعة الألوان والتفاصيل، فإن كل خبرة حياتية تشكل قطعة من هذه الفسيفساء، تضاف إلى وعي الانسان، فتقترب هذه الصورة من الاكتمال مع كل تجربة ناجحة.

هدف الحياة إكمال الصورة التي تقبع بالقوة في قطع الفسيفساء المتفرقة، فتتفعل معرفة الانسان ويكتمل بوعيه.

إن فهم تجارب الحياة، اسبابها، والغاية منها، هو أشبه بالنظرة الشاملة التي تُمكّن المرء من رؤية الصورة في الخلفية التي تبنى عليها هذه الفسيفساء. أما الانسان بوعيه الحالي، وفي حالته الحاضرة، فهو ينظر إلى التجارب الحياتية كمن يمعن النظر في قطعة واحدة من الفسيفساء. فماذا عساه يدرك؟

إن ما يعتبره البعض عشوائية أحداث واعتباطية في تعرض المرء لتجارب الحياة المختلفة، لهو في حقيقة الامر قصور عن إدراك الأسباب خلف الأحداث والغاية منها؛ ايضاً، محدودية في ربط الماضي بالحاضر، وابتعاد كلي عن نظرة متجرّدة في حيثيات الأحداث، بحيث تغشي سيطرة الأنا الصورة، وتضعها في إطار زمني محدود باللحظة الحاضرة، ومقيد بالدفاع الأعمى عن النفس، وبعيداً عن تقصي الاسباب.

قد يعترض البعض بأن ثمة تجارب حياتية ومصاعب مختلفة لا يمكننا إدراك أسبابها حتى ولو حاولنا بكل ما اوتينا من تفكير متعمّق...

صحيح أن الأسباب قد تكون خافية في بعض الأحيان، إنما ذلك لا يعني أنها غير موجودة، أوأن الحظ والقدر هما اسياد الموقف!!!...

علّمتنا الحياة أنه ما من شيء مستحيل على الانسان إن هو أراد. فهو - سفير - الله على الأرض، والمشارك الفاعل في رفع مستوى الحياة. ألا يقول القرآن الكريم: لله رجال إن هم أرادوا أراد؟

السر يكمن في تبني الانسان مهمة تطوير الوعي وفهم نفسه بتجرّد، آنئذ، ما من مستور إلا ويُكشف، وما من مجهول إلا ويُعلم. هذا ووسائل كشف المعرفة عن خباياها متعددة وشيّقة.

الانسان مخلوق عظيم، وعظمته تدل على عظمة خالقه. وما هدف الحياة من تجاربها، سواء كانت قاسية او يسيرة، غير رفع الانسان الى المراقي التي انحدر منها قبيل وجوده في عالم الازدواجية، رفعه الى عالم الوحدة، عالم الحقيقة، وذلك عبر تعبئة فراغات النفس والوعي بخلاصة التجارب المكتملة.

بول ابي درغام